مأساة شاعر

أو

المعتمد بن عبّـاد

(٤٣١ ـ ٤٨٨هـ)

بقلم

حبيب الزاوي

بغـداد ـ ١٩٦٥

مطبعة العاني ـ بغداد

الملـك

هو أبو القاسم محمد بن عبّاد[1] ... بن القاســـم محمد قاضي اشبيلية ، ويرتد نسبهم الى النعمان ابن المنذر ملك الحيرة[2] ، وقد لقب فيما بعد بالمعتمد ليتفق مع اسم جاريته اعتماد الرميكية[3] .

كانت ولادته سنة ٤٣٢هـ ، وقيل ٤٣١هـ[4] في كورة باجه من أعمال اشبيلية[5] واختلف المؤرخون في زمن توليه الخلافة ، فأبن خلـكان وابن خلدون وابن خاقان يقولون انه تولى الخـلافة سنة ٤٦١ وكان عمره ثلاثين سنة ، أما المراكشي فيقول « ولما امّر اشبيلية وله سبع وثلاثون سنة من العمر » ، أما المقرى فيقول : « ولي بعد وفاة أبيه سنة ٤٦٠ ، وكان مولده سنة ٤٣١ فيكون عمره احدى وثلاثين سنة ، وفي موضع آخر من ابن خاقان انه ولي وعمره ٢٩ سنة » .

ودولة بني عباد كانت احدى دويلات الطوائف في الاندلس ، وقـد شاءت الاقدار الا يحكمها الا ثلاثة رجال ، كان اولهم القاضي ابو القاسم ، وخلفه ابنه المعتضد ، ثم المعتمد الذى نحن بصدده ، والذى كانت نهايتـه على يدى يوسف ابن تاشفين احد ملوك المرابطين[6] وقد جاء يوسف هذا لنصرة دولة آل عباد ، حين خاض المعتمد حربا مـــع الاذفونش ، ملك الافرنج ، وصاحب قشتاله ، وكان سبب الحرب ، ان دولة بنى عباد كانت

---

(١) السيوطي : ٣٤٩ .
(٢) ابن خلكان ت : ٦٩٧ والدولة العبادية لابن خاقان ٢ ــ ٢٨ .
(٣) الدولة العبادية ٢ ــ ٦٩ .
(٤) الدولة العبادية ٢ ــ ٦ ٦١ .
(٥) نفح الطيب ١٠ ــ ١٠٠ .
(٦) زامباور : ٨٦ .

تدفع ضريبة الى الاذفونش ، كل عام ، فلما هيء للاخيران ان يستولي على طليطلة رفض الجزية طمعا في الاستيلاء على اشبيلية ، حاضرة بني عباد ، فاستنجد المعتمد بيوسف بن تاشفين ، وخاض حرب الزلاقة المشهورة ، التي انتهت بهزيمة الاذفونش ، ولـكن ابن تاشفين ، قلب ظهر المجن لابن عباد ، واسره بعد ان استولى على ملكه وقتل ولديه الراضي والمأمون ...

وقد كان للمعتمد صولة في بداية حكمه ، ويحدثنا ابن خلدون بانه ـ أي المعتمد ـ استولى على دار الخلافة في قرطبة من يد ابن جهور وفرق ابناءه على قواعد الملك ، وعلت يده على من كان ملوك الطوائف مثل ابن بادیس بغرناطة ، وابن الافطس ببطليوس ، وابن صمادح بالمريّة ، وكانوا يطلبون سلمه ، ويعملون على مرضاته[٧] . ويبدو ان الحرب كانت مستعرة الاوار لا ينطفىء لهيبها ، اذ يغير المعتمد على قرطبة ، وينتزعها من يد ابن جهور ثم يغير المأمون ، من بني ذى النون ، وينتزع قرطبة من المعتمد ، فيكرّ المعتمد مرة أخرى ويستولي على المدينة[٨] .

وقد حاولت تلك الدويلات الصغيرة في الاندلس ، أو حاول ملوكها ، ان يستعيضوا عن ضعفهم وضآلة شأنهم ، بالالقاب الضخمة الرفيعة ، حتى قال فيهم ابن رشيق :

مما يزهدني في أرض اندلس	تلقيب معتمد فيها ومعتضد
القاب مملكة في غير موضعها	كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد[٩]

وعلى الرغم من ضعف تلك الدويلات ، فأن المعتمد ، كان من ابرز الرجال ، واكثرهم كفاءة ومقدرة وهو يعد في مصاف عبدالرحمن الثالث (الناصر) والحكم الثاني والمنصور بن ابي عامر ولسان الدين ابن الخطيب الوزير[١٠] .

(٧) كتاب العبر ٤ ـ ٩٥٨ .
(٨) زامباور : ٨٩ ، نفح الطيب ١ ـ ٢٨٨ .
(٩) الحلل السندسية ١ ـ ٢٠٣ .
(١٠) Enbyclopedia of Islam

ويبدو انه مما حبب المعتمد الى الناس اختلافه عن ابيه الذى كان مشهورا بالقسوة والبطش ، بينما كان المعتمد على جانب عظيم من الرقة واللين وحسن المعاملة .

وقد وصفه ابن خاقان : « ... من الملوك الفضلاء ، والشجعان العقلاء الاجواد الاسخياء ، عفيف الذيل ، مخالفالابيه في القهر والسفك ، والاخذ بادنى سعاية »[١١] .

وكان الى جانب ذلك « ذا فضل وافر ، وعلم غزير باهر وكان اندى ملوك الاندلس راحة وافضلهم سماحة ، وكانت حضرته ، قبلة الآمال ، ومحط الرحال ، ومألف الفضلاء ، حتى انه لم يكن بباب أحد من ملوك عصره ، ما كان يجتمع ببابه »[١٢] .

على ان مثل هذه الحياة المترفة ، والمعيشة الناعمة التي عاشها ابن عباد ، قد صرفته عن أمور الملك ، وتدبير شؤون الدولة ، وفي ذلك يقول ابن خاقان :

« ... الا انه كان مولعا بالخمر ، منغمسا باللذات ، عاكفا على البطالة مخلدا الى الراحة ، فكان ذلك سبب عطبه واصل هلاكه[١٣] » .

ولعل الامر كان ابعد من ذلك ، فان الصراع الداخلي بين ملوك الطوائف ، وهو من جملتهم ، مما اضعف قوته ، واوهن عزمه ، هذا بالاضافة الى صغر مملكته بالنسبة الى خصومه الذين خاض ضدهم الحروب ، فأكبر الظن انه لو دخل معركة الزلاقة منفردا لخسر الحرب وباء بالفشل ، ولـكن جيوش ابن تاشفين هي التي حققت له الانتصار ، ثم جاء دوره فدارت عليه الدائرة ، فطوحت به الاقدار الى سجن اغمات ، وذهبت نسوته وبناته ويستجدين الاكف ويلتمسن العطاء ... ومن الغريب ان ابن خاقان يناقض نفسه في كتابه الثاني قلائد العقيان ، فهو يقول في

(١١) الدولة العبادية : ٢ ـ ٦٦ .
(١٢) الدولة العبادية ٢/٢٨ ـ ٢٩ .
(١٣) الدولة العبادية ٢ ـ ١٦٢ .

ترجمة المعتمد ... « ملك قمع العدا ، وجمع البأس والندى ، لم يتعطل كفه ولا بناته اونة يراعه واونة سنانه »[١٤] ولا أدرى أكان احب السجع هو الذى حدا بالكاتب ان يثير هذا القول ، أم أراد ان يؤرخ حقيقة من حقائق التاريخ ؟!

ومهما يكن من أمر فمثل هذه الدويلات الصغيرة ، التي تعيش متناحرة فيما بينها ولا تستطيع الاستمرار والصمود في مثل هذا الجو الصاخب ، والاحداث المريعة ، بل ان الانهيار ينتظرها في كل وقت من الاوقات .

على ان أهمية هذه الدولة ، تظهر في ناحية أخرى ، هي ناحية العلم والادب ، فالمعتمد كان أديبا وشاعرا مجيدا كما ذكرنا ، وفي ظله ازدهر الادب ، وانتعش الشعر ، ولو أردنا ان نقف عند هذه الناحية ، من حياة المعتمد لطال بنا المقام ...

وقد كان مقام ابن عباد في اشبيلية ، وسميت ايضا حمص ، لنزول أهل حمص خاصة بها ، لما وصلوا من الشام مع موسى بن نصير وطارق لفتح الاندلس ، « وقد كانت اشبيلية آنذاك ، مدينة كبيرة عامرة ، ذات أسوار حصينة ، واسواق كثيرة ، وبيع وشراء واهلها مياسير ، وجل تجارتها بالزيت »[١٥] .

وما كان بنو عباد في بداية أمرهم حكاما ، لانهم لا ينتمون الى الامويين ، وانما ينتمون الى النعمان بن المنذر وقد اشار الى ذلك المعتمد في شعره :

من حلبة السيف لا برق يخاطفها ... الى مداها ولا ريح يجاريها
تردهم نسبة نحو السماء بهم ... من مائها وعلاهم من دراريها

يشير الى المنذر بن ماء السماء

(١٤) قلائد العقيان : ٤ .
(١٥) الحلل السندسية ١ ـ ٨٤ .

وقال في موضع آخر :

نفر الى ماء السماء تماهم ... نسب على اوج النجوم مخيم
بالبيض والبيضات والحلى اكتسوا ... فتوشحوا وتتوجوا وتعمموا[١٦]

وله أخبار طريفة مع جاريته اعتماد الرميكية ، وكانت واحدة من ٨٠٠ جارية كن تحت تصرفه[١٧] ، الا ان اعتماد هذه كانت جاريته وزوجته المفضلة ، وقد نالت عنده من الحظوة مكانة مرموقة ، وقد تحدث المؤرخون عن الطريقة التي تعرف بها ابن عباد على الرميكية : « فقد ركب المعتمد في النهر ومعه وزيره ابن عمار وقد زردت الريح النهر فقال لابن عمار اجز : صنع الريح من الماء زرد ، فاطال ابن عمار الفكرة ، فقالت امرأة من الغسالات : « أي درع لقتال لو جمد » فتعجب ابن عباد من حسن ما أتت مع عجز ابن عمار ، ونظر اليها ، فاذا هي صورة حسنة ، فاعجبته ، فسألها : أذات زوج هي ؟ فقالت : لا ، فتزوجها ... »[١٨] .

وكانت اعتماد الرميكية هذه ، أما لاولاد المعتمد وهم : سراج الدولة الذي قتله بنو عكاشة ، والراضي الذى قتله قرور اللمتوني ، والرشيد الذي حمل مع أبيه الى العدوة وتاج الدولة ، وزين الدولة[١٩] .

وقد لعبت الرميكية دورا هاما في الحياة السياسية للمعتمد ، وقيل انها كانت السبب في الايقاع بوزيره ابن عمار ، حين عرض بها في قصيدة له منها :

تخيرتها من بنات الهجين ... رميكية ما تساوى عقالا

وقد اورد المؤرخون للدلالة على مكانتها ما يأتي : « ... رأت ـ اعتماد ـ ذات يوم نساء البادية يبعن اللبن في القرب ، وهن رافعات عن سوقهن في الطين ، فقالت له : اشتهي ان أفعل أنا وجواري مثل هؤلاء

(١٦) الدولة العبادية : ٢ ـ ١٣٢ .
(١٧) المصدر نفسه ٢ ـ ٦٢ .
(١٨) المصدر نفسه ٢ ـ ٢٢٥ .
(١٩) المصدر نفسه : ٢ ـ ٦٩ .

النساء • فأمر المعتمد بالماء والمسك والكافور وماء الورد وصير الجميع طينا في القصر ، فخرجت هي وجواريها تخوض الطين ••• »[٢٠] •

ولما شاءت الاقدار ان يخلع قالت له : « والله ما رأيت خيرا ، فقال لها : ولا يوم الطين ؟! » •

واخباره مع وزيره ابن عمار ، الشاعر المشهور ، منثورة في كتب الادب والتاريخ وابن عمار هذا هو ابو بكر بن محمد ، وقد كان يتولى تصريف كثير من الشؤون السياسية والعسكرية ، بل كان يقود بعض المعارك ، ومنها الحملة التي ارسلها المعتمد نفج قرطبة ولكن العلاقة سرعان ما انتهت الى الانقطاع ، فأمر المعتمد باعتقال ابن عمار وايداعه السجن ، ولم يكتف بذلك بل قتله[٢١] •

ولا ندري احقا ان مقتل ابن عمار كان بتحريض من الرميكية جارية المعتمد ، أم كانت هنالك اسباب لابد معها من قتل ابن عمار ، للقضاء على الفتنة في مهدها ، كما يبدو لابن عباد ، وعلى أية حال فقد كان ابن عمار يوجس الخيفة ، ويحس بقرب الكارثة ، وفي ذلك يقول :

أخافك للحق الذي لك في دمي ... وارجوك للحب الذي لك في قلبي

وفيها يقول :

أصدق ظني أم أصيخ الى صحبي ... وافضي عزيمي ام اعوج مع الركب[٢٢]

اذا انقدت في رأى مشيت مع الهوى ... ••• ••• •••

والمقطوعة تفيض بالهواجس التي تملأ قلب ابن عمار ، وترسم له صورة قاتمة لما يستقبله من الاحداث ، ومع ان المعتمد قد أجابه بالابيات التالية :

تقدم الى ما اعتدت عندى من الرحب ... ورد تلقك العتبى حجابا عن العتب

متى تلقني تلق الذي قد بلوته ... صفوحا عن الجاني ردوفا عن الذنب

(٢٠) نفح الطيب ر ١ ـ ٢٨٧ •
(٢١) المراكشي : ٥٩ ، الدولة العبادية ٢ : ٨٣
(٢٢) الدولة العبادية ٢ ـ ١٩ •

ولكن هيهات ان تذهب هذه الابيات ، الوساوس والهواجس من نفس ابن عمار « فلم يزده جواب المعتمد الا توحشا ونفارا ••• »[٢٣] حتى صدقت ظنونه حين أمر بقتله •

وقد ذكرنا المعركة الحامية بين ابن تاشفين من جهة ، وبين المعتمد من جهة ثانية ، وكيف استبسل في الدفاع عن ملكه ، وما أصاب الناس من هلع ورعب ، فانتهت المعركة بمقتل ولديه ، واخذه اسيرا الى سجن اغمات في مراكش ، مملكة ابن تاشفين ، وكانت أيام ابن عباد في هذه الفترة حافلة بالبؤس والشقاء والحرمان ، واستمر يقاسي ألم القيد والسجن حتى توفي مسجونا باغمات •••• بعد ان بقي فيها اربع سنوات ، لان خلعه قد تم سنة ٤٨٤ في يوم الاحد لعشر بقين من رجب •

وكانت خاتمة ابن عباد ، من أروع المآسي التي خلدها التاريخ ، كان فريق من اصحابه ، وفي مقدمتهم الشاعر ابن اللبانة ، يزورونه في السجن كي يخففوا عنه الام القيد ، وشدة الاسر ، كما كانت بناته واولاده يأتون اليه بين حين وآخر ، ولكنه نظر الى هذه الخاتمة ، انها أمر شاءت الاقدار ان يكون ، وكارثة أراد الله لها ان تقع •••

وفي الصفحات التالية سنحاول ان نعرض صورة صادقة للعواطف التي جاشت في نفسه وانطلقت شعرا على لسانه ، كما اثارت اشجان غيره من الشعراء والهبت عواطفهم فانبعث شعرا حزينا ، يمثل الالم المكبوت ، والمجد المنهدم ، والملك الضائع ، والحرية المفقودة •••

(٢٣) الدولة العبادية ٢ ـ ٩٣ •

قبـل النـكبة

انقضت ثلاث وعشرون سنة ، على ابن عباد ، وهو في دست الملك ، وهي مدة طويلة باعتبارها فترة من فترات الحكم ، الا انها كانت حافلة بأخبار الحرب والفتح ، كما كانت حافلة باخبار الادب والشعر ، وقد المعنا الى ان أهم الحروب التي خاضها المعتمد ، هى التى دارت بينه وبين جهور للحصول على قرطبة ، ثم معركة الزلاقة ، ثم معركة اشبيلية التي ختمت ملكه .

اما في ميدان العلم ، فقد شبه بعض المؤرخين الحياة العلمية في دولة بني عباد ، بالاندلس[1] بما هي عليه في بغداد على ان في هذا التشبيه بعض المغالاة ، لأن بغداد كانت واسطة العقد واليها انتقل التراث اليوناني والفارسي والهندي والسرياني ، أما الاندلس فكانت أقل شأنا في هذا المضمار ...

وما كان المعتمد ، وحيدا بين رجال الأندلس في رعاية العلم والادب ، فلئن كانت بغداد في عصره مركز الثقافة والحياة العقلية ، فأن الآثار الفكرية التي كانت تظهر في بغداد سرعان ما تنقل الى الاندلس ، نظرا لشغف القوم بالمسائل العلمية ، وانصرافهم نحو الادب ، وما نقله المؤرخون عن سعة المكتبات هناك ، وما فيها من الاعداد الهائلة من المجلدات كلها أدلة تشير الى انبعاث الحركة العلمية والفكرية في تلك الربوع ، وقد كان المعتمد من الذين رعوا هذه الحركات الفكرية ، حتى عزى انهيار ملكه الى انصرافه الى الادب والشعر عن تصريف شؤون المملكة ، وفيه يقول ابن خاقان .

« ... قد جمع أدوات سائرها ، وكان شعره كقلائد اللؤلؤ المنظوم ، كثير الملح والفوائد » ثم يضيف الى ذلك قوله : « ورزق من الناس حبا ورحمة ، فهم يبكونه الى اليوم ، وفي أيامه نفقت سوق الادباء فتهافتوا اليه

(١) نفح الطيب ر : ٢ ـ ١١٢٥ .

وتسابقوا عليه ، ولم يك في ملوك الاندلس قبله اشعر منه ولا اوسع مادة ... »[2] .

ومع هذا الاطناب في الثناء على المعتمد بن عباد ، فأن المؤرخين لم يحدثونا عن الكتب التي الفت تحت رعايته ، او نقلت الى العربية ، الا اشارات خاطفة ، ويبدو انه اقتصر على الشعر ، فأخذ يطارح أصحابه في مجالس الانس والسمر ، ومسارح اللهو والعبث ، فهو تارة يكتسب ابياتا الى ابنه الراضي مجيبا اياه عن قصيدة وجهها اليه ، واخرى يضمن عواطفه واشواقه في ابيات يوجهها ابن عمار ، ومرة يخاطب ابن زيدون بابيات تعبر عن اخلاصه وشوقه اليه ، وآنا يبعث الى حبيبته معبرا عن هواه ونفاذ صبره :

انا في عذاب من فراقك نشوان من خمر اشتياقك ..الخ[3]

وكان يشترط فيمن يصبح وزيرا عنده ، ان يكون أديبا شاعرا[4] ، بالاضافة الى المزاياالاخر ى .

وله محاورات طريفة مع وزيره ابن عمار ، فقد حمله اشواقه وذكريات صباه يوم بعثه الى مدينة شلب ليتفقد أعمالها ، وكان واليا عليها من قبل أبيه المعتضد :

الا حي اوطاني بشاب ابي بكر وسلهن هل عهد الوصال كما ادرى؟
وسلم على قصر الشراجيب من فتى له ابدا شوق الى ذلك الى القصر[4]

وحين آب ابن عمار من رحلته هذه ، استقبله المعتمد بعواطف حارة ضمنها قصيدة مطلعها :

« لما نأيت ....

ولكن حين ساءت العلاقات بين المعتمد ووزيره ، تحولت المطارحات

(٢) الدولة العبادية ٢ ـ ٦٣ .
(٣) المصدر نفسه ٢/٢٩ـ٣٠ .
(٤) المراكشي : ٦٥ .
(٤) المصدر نفسه ٢ ـ ٨٩ .

الشعرية بينهما ، الى اتهامات ودفع لتلك الاتهامات والاعتذار .

ووشى الى ابن عمار ان المعتمد كتب في قرطبة الى بعض كرائمه شعرا يعتذر فيه عن اللحاق بها قال فيه :

مولاى عندى لما تهوى مساعدة ... كما يتابع خطف البارق السارى
انششت فيالبحر فاركب ظهر سابحة ... او شئت في البر اركب ظهر طيار
حتى تحل وحفظ الله يكلؤنا ... ساحات قصرك واتركني الى دارى
وقبل خلع نجاد السيف اسع الى ... ذات الوشاح وخذ للحب بالثار
ضما ولثما يغني الحلى بينكما ... كما تجاوب اطيار باسحار[٥]

وقد تكون هذه الرواية صادرة عن أصل صحيح ، وقد تكون هي السبب العميق للجفوة التي كانت بين المعتمد ووزيره ثم أخذ كلاهما يتذرع بأسباب أخرى ، تغطية للسبب الحقيقي الذى يمس كرامة الاثنين ... يضاف اليها بعض السعايات التي قام بها الواشون بين الاثنين ، ومنها ان الاخبار أخذت تتواتر الى المعتمد عن سوء تصرف ابن عمار لاسيما في ولاية لبلنسية فكتب اليه :

تغير لي فيمن تغير حارث ... ورب خليل غيرته الحوادث
احارث ان شوركت فيك فطالما ... نعمنا وما بيني وبينك ثالث

فأجابه ابن عمار :

لك المثل الاعلى وما انا حارث ... ولا انا ممن غيرته الحوادث
اظن الذي بيني وبينك اذ هبت ... حلاوته عنى الرجال الاخابث[٦]

كما ان له أخبار ومراسلات شعرية مع ابن زيدون ، ذى الوزارتين ، وكان ذا علاقة بالمعتمد ، قبل ا نيصبح ملكا ، وقد بعث اليه بقصيدة في أول يوم توليه الملك ، فيها رثاء لابيه الراحل ، ومديح له باعتباره الملك الذى تعقد عليه الآمال ، ومطلعها :

(٥) ابن خاقان ع : ٢ ـ ٨٨ .
(٦) ابن خاقان ع : ٢ ـ ١٠٠ .

هو الدهر فاصبر للذي احدث الدهر ... فمن شيم الاحرار في مثلها الصبر

ويبدو ان العلاقة بين الاثنين ، كانت اوسع من نطاق السياسة والملك ، فاتفاق موردهما في الادب والشعر ، وانصرافهما الى التمتع بملذات الحياة ، مما دفع ابن زيدون ان يكتب الى المعتمد مشوقا اياه الى الحمّيا :

فز بالنجاح واحرز الامالا ... وخذ المنى وتنجز الامالا
وادر هناك من المدام كؤوسها ... واتمها واشفها جريا لا[٧]

وقد ذكر المقرى ابياتا للمعتمد ، لا تنسجم مع شعره الذى عرف بمتانة السبك ، وحسن الترتيب ، وجائز ان تكون تلك الابيات ، قد وضعت للعبث والتندر ، فلم يحفل المعتمد بمعانيها ولا بالفاظها ، ومنها :

يا خير من يلحظه ناظري ... شهادة ما شأنها زور
حظك من شكرى يا سيدى ... حظ نما لي منك موفور
فانت تنظم وتنثر فقد (كذا) ... اعوز منظوم ومنثور ... الخ[٨]

او قد يهبط الشاعر أحيانا من عليا سمائه الى سفساف القول ، وتافه المعنى وضعيف الصورة ...

ولم يكن ليفوته ان يطارح اهله وافراد اسرته مقطوعات من الشعر ومن ذلك ما كتبه الى ابنه الرشيد :

كنت حلف الندى ورب السماح ... وحبيب النفوس والارواح
اذ يميني للبذل يوم العطايا ... ولقبض الارواح يوم الكفاح[٩]

ومما كتبه الى المعتصم :

انفحة الروض رقت في صبا السحر ... من بعد ما بات والانداء في سمر

ثم يمضي في القصيدة مضمنا اياها تحياته واشواقه ...

(٧) نفح الطيب : ٢ ـ ١١٣١ .
(٨) نفح الطيب ٢ ـ ١١٣٢ .
(٩) الدولة العبادية : ٢ ـ ٧٤ .

وقال مستعطفا أباه المعتضد من قصيدة طويلة :

رضاك راحة نفسي لافجعت بـــه ... فهو العتاد الذى للدهر ادخـــر
وهو المدام التي اسلو بها فاذا ... عدمتها وقدت في قلبي الفكـــر
ما تركي الخمر عن زهد وعن ورع ... فلم يفارق لعمري سني الصغر[10]

وكتب الى احدى جواريه « سحر » وكانت قد زارته في مرضـه ، بلقائها سرورا لا مزيد عليه :

وما خطت الاقـــلام الا ودمعي ... تخط سطور الشوق في صفحة الخد
ولولا طلاب المجـد زرتـك طيّه ... عميداً كما زار الندى ورق الورد
كتبت وعندى من فراقك ما عندي ... وفي كبدى ما فيه من لوعة الوجد

ولـه شـعر رقيق في الوصف ، وقـد وصف مجـالس الانس ، والجواري اللائي تمتع بهن ، والخمرة التي طالما عاقرها ، كل هذا الوصف قبل النـكبة ، أما بعد ان سجن فقد انصرف الى وصف الامة واشجانه ...

وقد أمره أبوه أن يصف ترسا لازوردى اللون مطوقا بالذهب ، في وسطه مسامير مذهبة فقال :

مجن حـكى صانعوه السماء ... لتقصر عنـه طـوال الرمـاح
وصاغـوا مثـال الثـريا عليـه ... كـواكب تقضـي لنـا بالنجـاح
وقد طوقن بثوب النضـار ... كما جلل الافق ضوء الصباح[11]

وقال يصف مجلس خمر :

ولقد شربت الراح يسطح نورها ... والليـل قـد مـد الظـلام رداء
حتي تبدى البدر في جوازائـه ... ملكا تناهى بهجة وبهاء[12] .. الخ

وفي هذه القصيدة صور جميلة للبدر ، وقد اتخذ الجوزاء مظلة ، وحوله الـكواكب كأنها مواكب حوله ...

(١٠) المصدر نفسه : ٢/٦٧-٦٨ .
(١١) المصدر نفسه : ٢ - ٦٣ .
(١٢) قلائد العقيان : ٦ .

وقال : وهو يخوض معركة الزلاقة :

لابد من فرج قـريب ... يأتيك بالعجـب العجيب
غزو عليـك مبـارك ... في طيـه الفتح القريـب
لله سـعدك انـه ... تكس على دين الصليب
لابـد من يـوم يـكون لـ ... ـه أخـا يـوم القليب[13]

ومن هذه الابيات يبدو ان الحرب قد اتخذت طابعا دينيا بين المسلمين والنصارى في الاندلس ، ولكن الحروب الاخرى كانت انشقاقا بين دول دول الطوائف الاسلامية ، بعضها ضد البعض الآخر .

ومن شعره المؤثر ، ما قاله وهو يخوض معركة دامية ، وقد اثخن جسمه بالجراح ، وبلغت الآلام كل مبلغ ، فتذكر احد ابنائـه الصغـار ، وقد تركه عليلا في قرطبة ، فهاجت في نفسه الاشجان ، وهاجت به الذكرى الى طفله العليل ابي هاشم فقال :

أبا هـاشم هشمتني الشـفار ... فلـله صـبري لـذاك الاوار
ذكرت شخيصك تحت العجـاج ... فـلم يثنني حبـة للفـرار[14]

وسار في جنح الليل ، مع طائفة من جواريه الحسان ، حتى اذا انشق فلق الصبح ، ودعهن وفي قلبه حسرات ، وفي نفسه آهـات على فراقهـن قائلا :

سايرتهم والليـل عقـد ثوبـه ... حتى تبدى للنواظر معلمـا
فوقفت ثـم مودعـا وتسـلمت ... من يد الاصباح تلك الانجما[15]

وفي احدى امسياته ، وقد لعبت الخمرة برأسه ، طـافت به صورة لمستقبل مظلم ينتظر آل عباد فقال :

ما يعلم المرء والدنيـا تمر بـه ... بأن صرف ليالي الدهر محذور .الخ

(١٣) نفح الطيب ر : ٢ - ٦٨٢ .
(١٤) نفس المصدر : ٢ - ٦٨٤ .
(١٥) ابن خلكان : ت ٦٩٧ .

وقال في جارية اسمها وداد :

اشرب الكأس في وداد ودادك ... وتأنس بذكرها في انفرادك
قمر غاب عن جفونك مرآه ... وسكناه في سواد فؤادك[16]

ويبدو ان عدوى البديع ، والتلاعب بالمحسنات اللفظية ، قد سرت من الشرق الى الغرب بعد فترة وجيزة من نشأت هذا الفن ، فشاعرنا يحاول ان يخلع رونقا وبهاء على شعره حين يصف مجلس خمر ويدعو صاحبها له :

نحن في المجلس الذى يهب الرا ... حة ونفسي منه السنا والسناء
نتعاطى التي تسمى من اللذة ... والرقة الهوى والهواء
فأته تلف راحة ومحيا ... قد اعدا الحيا والحياء[17]

وفي الابيات التالية يصف طيفا ألم به ، لفتاة كان قد فتن بها من قبل :

اباح لطيفي طيفها الخد والنهدا ... فعض به تفاحة واجتنى وردا
ولو قدرت زارت على حال يقظة ... ولكن حجاب البين ما بيننا مدا
اما وجدت عنا الشجون معرجا ... ولا وجدت منا خطوب النوى بدا
سقى الله صوب القطر ام عبيدة ... كما قد سقت قلبي على حره بردا
هي الظبي جيدا والغزالة مقلة ... وروض الرباعرقا وغصن النقا قدا[18]

وقال في احدى جواريه :

جاءتك ليلا في ثياب نهار ... من نورها وغلالة البلار
كالمشترى قد لف من مريخه ... اذا لفه في الماء جذوة نار
يتحير الراءون في نعتيهما ... اصفاء ماء أم صفاء درارى

وهكذا فان حياة الملك ، وشؤون الدولة ، لم تصرف المعتمد عن الشعر ، بل جال فيه جولات موفقة ، تدل على طبع موات ، وقريحة خصبة ، وعاطفة صادقة ، فاسلست القوافي له القياد وتدفقت المعاني والعواطف صورا حية ، وانغاما رقيقة في ثنايا شعره العذب .

(١٦) قلائد العقيان : ٧ .
(١٧) نيكل : ٨٣ .
(١٨) نفح الطيب ر : ٢ ـ ٦٢٣ .
(١٩) نيكل : ٩٣ .

النكبة

كان يوم الاحد لعشر بقين من رجب سنة ٤٨٤ ، آخر يوم من أيام بنى عباد ، رفيه هوى العرش ، وقوض السلطان ، ودالت الدولة ، التي لو قدر لها ان تعيش أكثر من ذلك لاستطاعت ان تلعب دورا فعالا في حياة الاندلس ، بل في اتجاه الحياة الفكرية ذلك ان ابن تاشفين ، أحد ملوك المرابطين في مراكش ، والذى استعان به المعتمد في حرب الاذفونش ملك الفرنجة ، كما اشرنا ، عاد مرة ثانية في العام التالي الى الاندلس ، لا لينصر آل عباد ، بل ليستولي على ملكهم ، بعد ان وقف على حقيقة قواهم . وبدا بغرناطة فاستولى عليها غدرا ، ثم مال الى اشبيلية ، وكان المعتمد فيها ، فدارت رحى الحرب بين الفريقين ،وابلى المعتمد فيها بلاء حسنا ، وشهد أهل البلدة موقعة لم يروا مثلها من قبل ، انتهت بانتصار ابن تاشفين ، واخذ المعتمد مع أهله وحاشيته بواسطة سفينة الى جزيرة اغمات ، حيث سجن هناك[1] .

وكانت اعتماد الرميكية بجانبه ، فابصرت الملك الذى كان يقول فينفذ قوله ، ويأمر فيطاع ، قد أصبح رهين السجن ، مثقلا بالقيود ، قد انفضت عنه الجموع وجرد من جلال الملك ، فقالت له : هنا هنا ، فاجابها قائلا :

قالت لقد هنّا هنا ... مولاى اين جاهنا
قالت لها : الهنا ... صيّرنا الى هنا ![2]

وهكذا فقد أراد ان يسكب العزاء في نفس زوجته ، ويلهم نفسه شيئا من ذلك بأن مثل هذه النتيجة التى انتهى أهله اليها ، أمر قد كتب عليهم في لوح الاقدار ، فلا مفر منه ، ولا مندوحة عنه ، ولكنه لم يكن ليستطيع مغالبة الآلام كل حين ، فطغت على نفسه موجة من البؤس والشقاء ...

(١) ابن خلكان ت : ٦٩٧ .
(٢) نفح الطيب ر : ٢ ـ ١١٠١ .

وحين ابصره أبو بكر الداني ، على هذه الحال ، ثار في نفسه الهم فانشده قصيدة طويلة مطلعها :

افكر في عصر مضى لك مشرقا فيرجع ضوء الصبح عندى مظلما[٣]

وفي القصيدة سكب الشاعر عواطفه ، وبث اشجانه ، لما انتهى اليه المعتمد وأهله ، ولم تكن آخر قصيدة ، بل حركت المأساة نفوس كثيرة من من الشعراء كما سنرى في الفصل التالي.

وذات يوم احتاج الى خباء ، فظن في الناس خيرا ، وطلب الى حواء بنت يوسف بن تاشفين ، ان تعيره خباء عندها ، فاعتذرت ، وحز ذلك في نفسه فقال :

هم اوقدوا بين جفنيك نارا اطالوا بها في حشاك استعارا
اما يخجل المجد ان زودوك ولم يصبحوا خباء معارا
فقد قنعوا المجد ان كان ذاك وحاشاهم منك خزيا وعارا
يقل لعينيك ان يجعلوا سواد العيون عليكم شعارا[٤]

وحين اشتدت عليه وطأة السجن وانقطع عنه سمّاره وأصحابه ، ضاقت الدنيا ـ بما رحبت ـ في عينيه وطغى على نفسه اليأس ، وتملكه القنوط فقال :

تؤمل للنفس الشجية فرجة وتأبى الخطوب السود الا تماديا
لياليك من زاهيك اصقى صحبتها كذا صحبت قبل الملوك الليالي
نعيم وبؤس ذا لذلك ناسخ وبعدهما نسخ المنايا الا مانيا[٥]

وسمع حمامة تغني ، فشجاه غناؤها ، وكأنها كانت تبكي وتنوح عليه ، بعد ان أحاط القيد بمعصمه كثعبان ملتف يريد القضاء عليه ، ثم يلتفت الى أعوانه فلا يجد منهم ناصرا او مجيبا ، فيلتمس المعونة من الرحمن ، ثم يعود

(٣) ابن خلكان ت : ٦٩٧ .
(٤) ابن خلكان ت : ٦٩٧ .
(٥) نفح الطيب ر : ٢ ـ ١١٠٤ .

الى الاصغاء الى هديل الورقاء ، بعد ان كانت القيان يغنينه في المقاصير :

غنتك اغماتية الالحان ثقلت على الارواح والابدان[٦] ... الخ

وما كان ابن اعباد اول من أثاره نوح الحمام ، واعاد اليه اشجانه وهمومه ، فقبله اشجى الحمام الكثير من الشعراء . سمع أبو العلاء حمامة تغني ، فخاطبها ان غناءها لم يكن الا رنينا واعوالا بالنسبة اليه ، وابو فراس الحمداني ، أصبح اسيرا بأيدى الروم ، وصار نهبا للهواجس والهموم ، سمع حمامة تنوح قريبا منه ، فأحس تجاوبا روحيا معها ، وكأن الدهر قد رماه من اسر ، وبعد عن الاوطان ، وطلب اليها ان تشاطره الاسى ، وتقاسمه آلام الغربة والبعد عن الوطن .

وفي القصيدة التالية ، يتخيل ابن عباد ، ان اخبار اسره ، قد ملأت الخافقين وشغلت الناس :

انباء اسرك قد طبقن آفاقا بل قد عممن جهات الارض اقلاقا
سارت من الغرب لا تطوى لها قدم حتى أتت شرقها تنعاك اشراقا
فاحرق الفجع أكبادا وافئدة واغرق الدمع آماقا واحداقا
قد ضاق صدر المعالي اذ نعيت لها وقيل : ان عليك القيد قد ضاقا

والحق ان النفس الانسانية ، تتطلب مشاركة وجدانية ، حين يتنزل بها كارثة أو تلم مصيبة وفجيعة الوالد بابنه ، أشد الوان الفجائع للنفس فكيف اذا اصابه الرزء ولدين معا في يوم واحد ؟

ومع ان الابيات التالية ليست تعبيرا كاملا عن شعوره فكأن النجوم في مأتم ، وكأن السحاب دموع ، وكأن النار احزانه :

يقولون صبرا لا سبيل الى الصبر سابكي وابكي ما تطاول من عمري
نرى زهرها في مأتم كل ليلة يخمشن لهفا وسط صفحة البدر
ينحن على نجمين اتكلن ذا وذا ويا صبر ما للقلب في الصبر من عذر

(٦) نفح الطيب ر : ٢ ـ ١٠٥ .
(٧) ابن خاقان ق : ٢٩ .

مدى الدهـر فليبك الغمام مصابـه بصنويه يعذر في البكاء مدى الدهر
بعين سحـاب واكف قصر دمعهـا على كل قبر حل فيه أخـو القطر
وبرق ذكي النار حتى كأنهـا يسعر مما في فؤادى من الجمر[٨]

وقد وجد الشاعر بعض السلوة ، يوم سجن معه طائفة من أهل فاس ، فكان يطارحهم الاحاديث ، ويساجلهم الاسمار ، مما سرى عن همومـه واحزانه ، ولـكن ما لبثت هذه الهموم ان أثارت حين اطلق سراح القوم :

اما لانسكاب الدمع في الخد راحة لقد آن يفنى ويفنى به الخد
تخلصتم من سجن اغمات والتوت علي قيود لم يحن فكها بعـد
خرجتم جماعات وخلفت واحدا ولله في أمري وامـركم الحمد[٩]

لقد كان في عذاب نفسي عنيف ، فأهله بما فيهم من اطفال وبنات ، قد شردتهم الايام وفجعهم الدهر ، واشباحهم ماثلة أمام عينيه ، هذا بالاضافة الى الحرية السليبة والقيود التي كبل بها ، فحزت ساقيه ، وهدت قواه ، فتضاعفت الآلام عليه من كل جانب :

تبدلت من ظـل عـز البنود بذل الحـديد وثقـل القيـود
وكأن حديدى سنانا ذليقـا وعصبا رقيقا صقيل الحديـد
وقد صار ذاك وذا اذ همـا يعض سـاقي عض الاسود[١٠]

ولم تفارقه سماحة نفسه ، ولا طيب قلبه ، حتى في اشد الايام ، فقد كان الشعراء يفدون عليه سجينا ، فيغدق عليهم من نعمة ما ملـكت يداه ، وقد وفد عليه أبو بـكر الداني أحد شعرائـه وهو في السجن ، فبعث اليه عشرين دينارا وشقة بغدادية وكتب معها معتذرا عن التقصير وقلة العطاء :

اليك النزر من كف الاسـير فأن تقبل تكن عين الشـكور
تقبل ما يكون لـه حيـاء وان عذرتـه أحوال الفقير[١١]

(٨) ابن خلقان : ع ٢ ـ ٤٣ .
(٩) نفح الطيب : ٢ ـ ١١٠٦ .
(١٠) ابن خلكان ت : ٦٩٧ .
(١١) ابن خلكان : ت ٦٩٧ .

ولـكن أبا بكر رد الهدية ، لما لمسه من سوء حاله ، ولانه لم يأت اليه طالبا العطاء وانما جاء ليرد الوفاء ، وليشكر النعمة التي طالما اسـبغها عليه من قبل .

وكان الشيخ عبدالجبار بن ابي بكر بن محمد بن حمديس ، توجـه من المغرب الى الاندلس ، في سنة ٤٧١ ، فقصد المعتمد ، واقام عنده ، الى ان خلع ، فـكتب المعتمد اليه شعرا :

غريب بارض المغربين اسـير سـيبكي عليه منبر وسـرير
فيا ليت شعرى هل ابيتن ليلة أمامي وخلفي روضة وغـدير
بمنبته الزيتون مورثـه العـلا يغنى حمام اوتدن طيـور[١٢]

ومن هذه الابيات يتدفق الامل ، وتطيف بابن عباد ذكـرى ايامه الماضية ، وصبواته وملاعبه ، يوم كانت يمينه للبذل والعطـاء آنا ، واذلال الخصوم وقبض أرواحهم آنا آخرا ، فهل ستعود اليه تلك الليالي الحسان ، حين كانت مجالسه بين الرياض والغدران ، تصدح الحمائم حولها وتغرد الاطيار ، في قصره الزاهي ، ثم يختم القول : « الاكل ما شاء الاله يسير » .

وحين طالت به الايام ، أخذ اليأس يتسرب الى نفسه ، فما عليه الا ان يندب تلك الايام التي قضاها لاهيا بالحياة ، مندفعا في تيارها ، على السحاب ولجج البحر الا ان تشاركه البكاء انهمار الدمع :

بكى المبارك في أثر ابن عباد بكى على اثـر غزلان وآسـاد
بكت ثرياه لا غمت كواكبهـا بمثل نوء الثريا الرائح الغادى
بكى الوحيد بكى الزاهي وقبته النهر والتاج كان ذله بادي
ماء السماء على اسعاده درر يا لجة البحر دومي ذات اسعاد[١٣]

(١٢) قلائد العقيان : ٢٧ ، نفح الطيب ر : ٢ ـ ٦٢٠ وابن خاقان ع : ٢ ـ ١٣٨ .
(١٣) نيكل : ٩٥ .

وطافحت في خياله وهو في السجن ، صورة المعركة ، التي خسرها ، والموقف الرائع والاستبسال المجيد في الحرب ، وكيف فضل ان يموت في تلك المعركة ابيا عزيز الجانب موفور الكرامة :

لما تماسكت الدموع ... وتنهنه القلب الصديع
قالوا : الخضوع سياسة ... فليد منك لهم خضوع
ان يسلب القوم العدا ... ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه ... لم تسلم القلب الضلوع ..[14] الخ

ولكنها لم تكن الا ذكرى شاعر ، وخيال عابر ، وقد أراد ان يعود الى الماضي ويعيش في ذكرياته المليئة بالفخار ، كي ينسى حاضره ، وما فيه من شقاء وحرمان .

وكان موقفا فريدا في التاريخ ، يوم أقبلت زوجه وبناته يهنئنه بالعيد ، وقد ظهر الشحوب على وجوههن ، وطمس الشقاء على آثار الترف والنعيم فيهن ، فأخذن يتعيشن من صناعة الغزل وقد اثر الحفى على أقدامهن . فقال والدمع ينهمر من عينيه :

فيما مضى كنت بالاعياد مسرورا ... فعادك العيد في اغمات مأسورا
ترى بناتك في الاطمار جائعة ... يغزلن للناس لا يملكن قطميرا
يطأن في الطين والاقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكا وكافورا
برزن نحوك للتسليم خاشعة ... ابصارهن حسيرات مكاسيرا
لا خد الا تشكى الجدب ظاهره ... وليس الا مع الانفاس ممطورا
افطرت في العيد لاعادت اساءته ... فكان فطرك للاكباد تفطيرا
قد كان دهرك ان تأمره متمثلا ... فردك الدر منهيا ومأمورا[15]

(١٤) نفح الطيب ر ٢ : ٦٢٢ ، قلائد العقيان : ٢٤ ، ابن خاقان ع : ٢ ـ ٧١ .
(١٥) ابن خلكان ت : ٦٩٧ .

ولم يتمالك الجميع ان انفجروا بالبكاء ، في يوم العيد ، وكان منظرا يفتت القلب اسى والنفس كمدا ، وهكذا تتقلب الايام ، وتدور الاحداث ، وتعبث الخطوب ....

وقد شاءت الاقدار ان تضع حدا للمأساة ، ففي صباح باكر من أيام ٤٨٨ دخل صاحب السجن كعادته كل صباح فوجد ابن عباد مسجى ، وقد أصبح جسدا هامدا ، فحملوه الى مقره الاخير :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصنا ... انيس ولم يسمر بمكة سامر

صـدى المأساة

لقد اخترق صدى المأساة حدود الزمن ، فعبر القرون وسار مع الايام ، وبقيت ذكريات الكارثة تطيف في نفوس الناس فقد وقف لسان الدين بن الخطيب على قبره بمدينة أغمات وكان القبر على نشز من الارض ، وقد حفت به سدرة ، وكان الى جانبه قبر زوجته اعتماد ، ويقول ابن الخطيب :

« ... وعليهما هيئة التغرب ، ومعاناة الخمول ، من بعد الملك ، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتها ، فانشدت في الحال :

قد زرت قبرك عن طوع باغمات ... رأيت ذلك من اولى المهمات
لم لا ازورك يا اندى الملوك يدا ... ويا سراج الليالي المد لهمات
وانت من لو تخطى الدهر مصرعه ... الى حياتي لجادت فيه ابياتي
اناف قبرك في هضب ، يميزه ... فتنتحيه صفيات التحيات
كرمت حيا وميتا واشتهرت على ... فأنت سلطان أحياء وأموات
ما رىء مثلك في ماض ومعتقدى ... ان لا يرى الدهر فيحال ولاآت[1]

لقد كان وقوف ابن الخطيب على قبر المعتمد ، بعد مرور ثلاثة قرون على وفاته ، وخلدت الايام ذكراه ، ومر المقرى صاحب نفح الطيب ، على القبر نفسه بعد ثمانية قرون ، فلم يتمالك ان ثارت لواعج الهم بين جنبيه ، حيث طافت بخياله خاتمة المعتمد ...

وقال الوزير بن عبدون ، من قصيدة طويلة ، يتفجع فيها على بني

(١) نفح الطيب ر : ٢ ـ ٤٨٩ .

عباد ونهاية المعتمد ، وكانت واحدة من قصائد كثر[2] :

الدهر يفجع بعد العين بالاثر ... فما البكاء على الاطلال والصور ؟
ما لليالي أقال الله عثرتنا ... من الليالي وخانتها يد الغير
بنى المظفر والايام ما برحت ... مراحلا والورى منكم على سفر
سحقا ليومكم يوما ولا حملت ... بمثله ليلة في مقبل العمر

وقال في قصيدة اخرى :

يا نائم الليل في فكر الشباب افق ... فصبح شيبك في أفق النهى بادى
عضت عنانك أيدى الدهر ناسخة ... علما يجهل واصلاحا بافساد
واسلمت علما من آل مسلمة ... وعبدت للرزايا آل عباد
لقد هوت منك خانتها قواد مها ... ككوكب في سماء المجد وقاد[3]

وقال ابن اللبان[4] :

تبكي السماء بدمع رائح غاد ... على البهاليل من ابناء عباد
على الجبال التي هدت قواعدها ... وكانت الارض منهم ذات اوتاد
والرابيات عليها اليانعات ذوت ... انوارها فغدت في خفض اوهاد

ثم يمضي الشاعر في وصف القصر الذي كان بمثابة عريسة دخلتها النائبات ، وكعبة يؤمها الناس فانقطعوا عنها ، وتلك الرماح التي ثقفها الزمان ولكن على اهلها ، كما فلت مضارب سيوفهم وتلك الانوار الساطعة قد خبا ضوءها ، والنجوم اللامعة قد انكسف نورها فلم يبق امل للسائلين ولا رجاء للعافين ، فما عليهم الا ان يرحلوا ملتمسين الرزق في بقعة اخرى من الارض

ضلت سبيل الى ابن السبيل فسر ... لغير قصد فما يهديك من هادى

والقصيدة الى هنا لم تكن الا صورا وتشبيهات دارت على السن

(٢) نفح الطيب ر : ٢ ـ ٥٨٠ .
(٣) نفح الطيب ر : ٢ ـ ٥٨١ .
(٤) نفح الطيب ر : ٢ ـ ٥٧١ .

الشعراء قبل ابن اللبانة في مثل هذا الموقف ، ومع ذلك ، فهي أوصاف صادرة عن نفس متأثرة ، وروح تجاوبت على الاحداث وقلب امتلأ بها ، فانصرفت عن اظهار الحزن والجزع الى عرض تلك الصور الاخاذة والمشاهد المؤثرة .

ان الشاعر ابن اللبانة ، كان صادق الوصف للكارثة التي المت بالمعتمد ، ذلك انه كان يرفض بين الحين والاخر ما يقدمه له من عطايا وهبات ، خلال فترة الاسر ، لعلمه انه بحاجة اليها ، وكانت لا تنقطع زياراته كي يخفف عنه الام السجن واحزان المصيبة .

ويلاحظ ان اكثر القصائد التي قيلت في رثائه او التفجع عليه ، كانت من ذلك اللون الغنائي ، الحزين :

نسيت الا غداة النهر كونهم ... في المنشآت كاموات بالحداد
والناس قد ملئوا العبرين واعتبروا ... من لؤلؤ طافيات فوق ازباد
حط القناع فلم تستر مخدرة ... ومزقت اوجه تمزيق ابراد
تفرقوا جيرة من بعدما نشأوا ... اهلا باهل واولادا باولاد
حان الوداع فضجت كل صارخة ... وصارخ من مفداة ومن فادى
سارت سفائنهم النوح يتبعها ... كأنها ابل يحدو بها الحادى
كم سال في الماء من دمع وكم حملت ... تلك القطائع من قطعات اكباد

وفي القصيدة ، كما نرى ، وصف للسفن ، التي اقلت المعتمد واهله ، وكأنهم اموات ، وقد احتشد الناس على ضفتي الوادى ، يودعونهم بالدموع والحسرات ، الى حيث يودع السجن ، ثم يصير الى القبر .

وقد وقف ابن اللبانة على قبره وانشد :

ملك الملوك اسامع فانادى ... ام قد عدتك عن النداء عوادى ؟
لما خلت منك القصور ولم تكن ... فيها كما قد كنت في الاعياد
اقبلت في هذا الثرى لك خاضعا ... وتخذت قبرك موضع الانشاد

قد كنت احسب ان تبدد ادمعي ... نيران حزن اضرمت بفؤادى
فاذا بدمعي كلما اجريته ... زادت حرارته على الاكباد .. الخ

وقد قال ابن خاقان « ... وهي قصيدة اطال انشادها ، وبنى بها اللواعج وشادها ، فانحشر الناس اليه واحفلوا ، وبكوا لبكائه واعولوا ، واقاموا اكثر نهارهم مطيفين به طواف الحجيج مديمين البكاء والعجيج ، ثم انصرفوا وقد نزفوا ماء عيونهم ، واقرحوا ماقيهم بقيض شؤونهم وهذه نهاية كل عيش ، وغاية كل ملك وجيش ... »[٥]

ولابن اللبانة المذكور قصيدة في بكاء ابن عباد مطلعها :

لكل شيء من الاشياء ميقات ... وللمنى من مناياهن غايات

ومنها :

والدهر في صبغة الحرباء منغمس ... الوان حالاته فيها استحالات
انفض يديك من الدنيا وساكنها ... فالارض قد اقفرت والناس قد ماتوا
وقل لعالمها الارضي قد كتمت ... سريرة العالم العلوى اغمات[٦]

وقال ابو محمد عبدالجبار بن حمديس الصقلي ، يصف رحيل ابن عباد :

ولما رحلت بالندى في اكفكم ... وقلقل رضوى منكم ثبير
رفعت لساني بالقيامة قد دنت ... فهذى الجبال الراسيات تسير[٧]

وقال في قصيدة اخرى :

استودع الله ارضا عند ما وضحت ... بشائر الصبح فيها بدلت حلكا
كان المؤيد بستانا بساحتها ... يجنى النعيم وفي عليائها فلكا
نعى أمره لملوك الدهر معتبر ... فليس يغتر ذو ملك بما ملكا[٨]

(٥) قلائد العقيان : ٣٥ .
(٦) ابن خلكان ت : ٦٩٧ .
(٧) نفح الطيب : ٢ ـ ١١٢٦ .
(٨) قلائد : ٢٧ .

ووقف ابن اللبانة على ولد ينفح الكير في حانوت احد الصاغة ، فامعن الفكر في ملامحه التي بدلها شظف العيش ، وشقاء الحياة ، فاذا هو احد ابناء المعتمد ، فتدفقت عواطفه ابياتا من الشعر :

شكاتنا لك يا فخر العلى عظمت ... والرزء يعظم ممن قدره عظما
طوقت من نائبات الدهر مخنقة ... ضاقت عليك وكم طوقتنا نعما
وعاد طوقك في دكان قارعة ... من بعد ما كنت في قصر حكى ارما
صرفت في الة الصواغ انملة ... لم تدر الا الندى والسيف والقلما
يد عهدتك للتقبيل تبسطها ... فتستقبل الثريا ان تكون فما
يا صائغا كانت العليا تصاغ له ... حليا وكان عليه الحلى منتظما
للنفخ في الصور هول ما حكاه سوى ... هول رأيتك فيه تنفخ الفحما[9] ..الخ

وقال الداني ، في نفس المعنى ، واصفا المأساة :

تنشق رياحين السلام فانما ... افض بها مسكا عليك مختما
افكر في عصر مضى بك مشرقا ... فيرجع ضوء الصبح عندى مظلما
واعجب من افق المجرة اذ رآى ... كسوفك شمسا كيف اطلع انجما
لئن عظمت فيك الرزية اننا ... وجدناك منها في البرية اعظما
بكى آل عباد ولا كمحمد ... وابنائه صوب الغمائم اذ همى
وقد البست ايدى الليالي قلوبهم ... منا سع سدى المغيث فيها والحما[10]

ونحن في هذه العجالة لم نستوف ما نظمه جميع الشعراء فيما يتعلق بالكارثة التي حلت بآل عباد ، وانما اردنا ان نعرض صورا من الشعر تمثلها ، كما تمثل عصر بن عباد ، سواء كان هذا الشعر على لسانه ، او لسان غيره من الشعراء .

(٩) نفح الطيب : ٢ ـ ٤٨٩ .
(١٠) نفح الطيب : ٢ ـ ٦٠٨ .

ولم ينقطع صدى الكارثة بموت ابن عباد ، او بموت الاشخاص الذين عاصرهم ، وانما امتد عبر القرون يطوف الزمن ، ويسير مع الاجيال ، ويطوى السنين .

المراجـــع

١ ـ ابن الاثير ـ عزالدين ابو الحسن : الكامل في التاريخ ١٤٠ جزءا • ليدن ١٨٥٣ •
٢ ـ ابن تغرى بردى ـ جمال‌الدين : النجـوم الزاهـرة في ملوك مصر والقاهرة •
٣ ـ ابن خاقان ـ الفتح : تاريخ الدولة العبادية في الاندلس حققه Dozy ليدن ١٨٥٢ •
٤ ـ ابن خلكان ـ شمس‌الدين احمد : وفيات الاعيان Gottingae ١٨٤٢ •
٥ ـ ابن خلدون ـ عبدالرحمن : كتاب العبر ديوان المبتدأ والخبر •
٦ ـ ابن عذارى : البيان المغرب في اخبار المغرب •
٧ ـ ارسلان ـ شكيب : الحلل السندسية في الاخبار والآثار الاندلسية • مصر ١٩٣٦ •
٨ ـ بروفنسال ـ ليفي : سـلسلة محـاضرات عامـة في آدب الاندلس وتاريخها •القاهرة ١٩٥١ •
٩ ـ بروكلمان ـ كارل : تاريخ الشعوب الاسلامية •
١٠ـ جبور ـ جبرائيل : ابن عبد ربه وعقده • بيروت ١٩٣٣ •
١١ـ حتى ـ فيليب : تاريخ العرب (مطول) •
١٢ـ الحميري : ابو عبدالله محمد : صـفة جزيـرة الانـدلس • حققـه بروفنسال • مصر ١٩٣٧ •
١٣ـ زامباور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي • جزءان • مصر ١٩٥١ •
١٤ـ السيوطي ـ جلال‌الدين عبدالرحمن : تاريخ الخلفاء • مصر ١٣٥١ •
١٥ـ الصولي ـ ابو بكر محمد : اشعار اولاد الخلفاء واخبارهم • حققه مرغليوت • مصر ١٩٣٦ •
١٦ـ عنان ـ عبدالله : دولة الاسلام في الاندلس • مصر ١٩٤٣ •
١٧ـ علي ـ محمد كرد ـ غابر الاندلس وحاضرها • مصر ١٩٢٣ •

١٨ـ المراكشي ـ محيي‌الدين ـ المعجب في تلخيص اخبار المغرب • مصر سنة ١٣٢٤هـ •
١٩ـ المقرى ـ احمد بن محمد : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب •
٢٠ـ البناهي ـ الشيخ ابو الحسن : تاريخ قضاة الاندلس •
٢١ـ نيكل ر : مختارات من الشعر الاندلسي ـ بيروت ١٩٤٩ •
٢٢ ـ Enc. of Islam.
٢٣ـ Nicholson: A Literary History of the ARABS

ملاحظـــة :

اضطررنا الى استعمال طبعتين من نفح الطيب : احداهما تحقيـق (رايت) اشرنا اليها (ر) والاخرى طبعة بولاق اشرنا اليها (ق) كما اشرنا الى قلائد العقيان لابن خاقان بالحرف ق ، والدولة العبادية بالحرف ع •